العرب
الجمعة 2021/11/26
السنة 44 العدد 12252

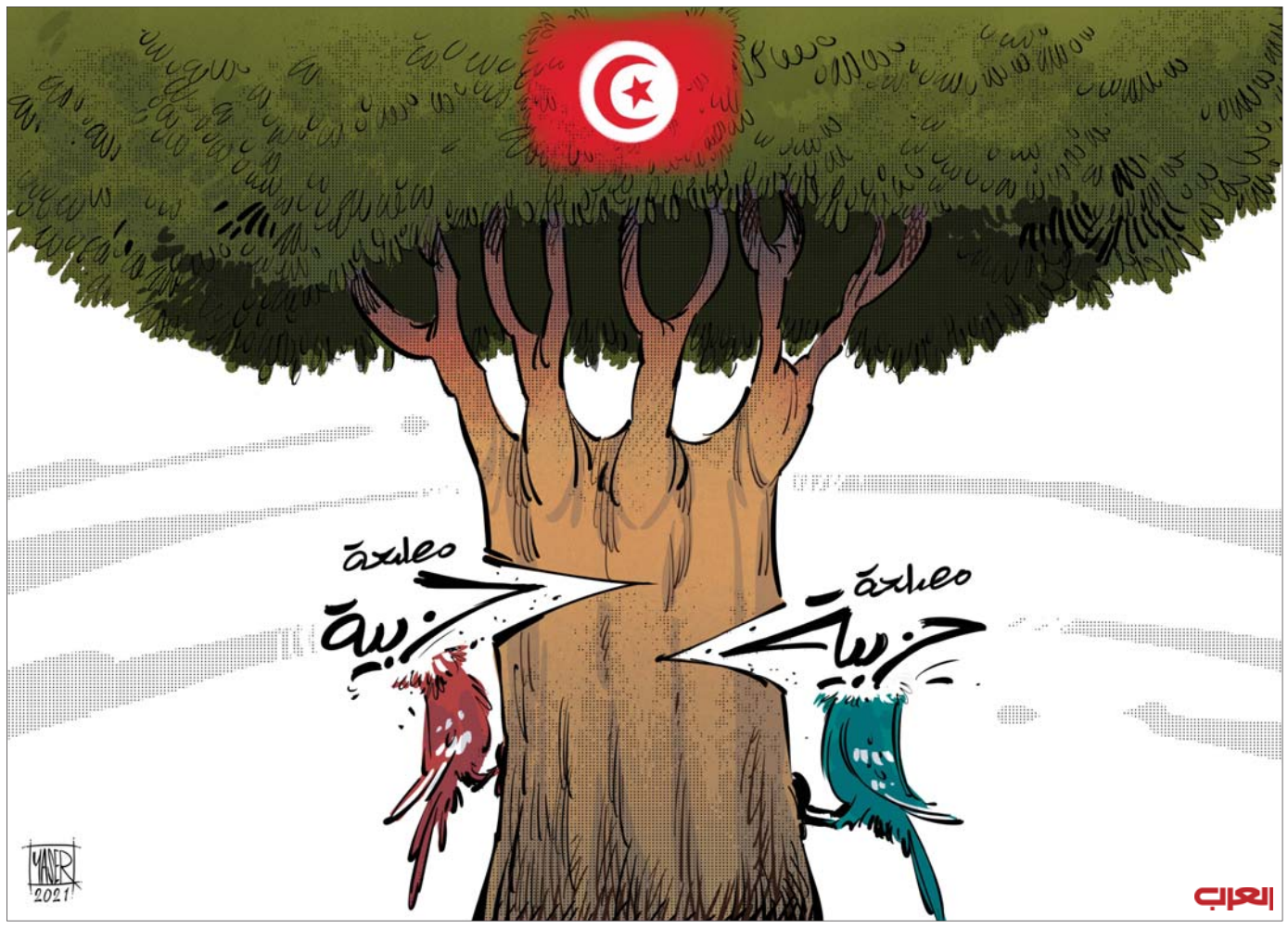

ليس هذا وقت تغيير المواقف في تونس

مختار الدبابي
كاتب وصحافي تونسي

أثار تزامن حملة التصريحات القوية لرئيسة حزب الدستوري الحر عبير موسي ضد الرئيس التونسي قيس سعيد مع تراجع حركة الشعب عن دعم مسار الخامس والعشرين من يوليو تساؤلات بشأن أجندات الأحزاب والنقابات التي ساندت الإجراءات الاستثنائية بقوة حين أعلن سعيد عن تجميد البرلمان ورفع الحصانة عن النواب وحل حكومة كان حزامها السياسي قبل خصومها من يعلن صباح مساء أنها لا تصلح.

ما الذي تغير بالنسبة إلى الدستوري الحر وحركة الشعب وقبلهما التيار الديمقراطي خاصة أن إجراءات سعيد كانت تعبيرا عن السقف الذي كانوا يطالبون به في مواجهة فوضى البرلمان والعنف اللفظي والبدني الذي شهدته جلسات كثيرة وطال بعضا من نوابهم.

يعرف هؤلاء أن ذلك كان عرضا أول لما هو قادم لهم ولغيرهم، فما الذي تغير بعد أربعة أشهر من الإجراءات الاستثنائية.

من الواضح أن الخلاف ليس على التغيير الذي جرى، ولا على أداء الرئيس في تنفيذ جزء لافت من الشعارات التي كان يرفعها قياديون كانوا يقولون إن أحزابهم هي الحزام السياسي للرئيس سعيد، وبعضهم يطلق على حزبه صفحة "حزب الرئيس".

سعيد نفذ ما كانوا يطالبون به صباح مساء من إسقاط "منظومة الإخوان" و"حكومة الغنوشي"، كما حل برلمانا كانوا يحصلون فيه على دور ثانوي سواء في ضبط التحالفات أو تمرير القوانين، وفتح حربا متعددة الأشكال على الفساد بالمضمون الذي طالبوا به، أي تفكيك نفوذ حركة النهضة والبحث في ملفاتها وملفات حلفائها والشخصيات التي قبلت اللعبة تحت مظلتها.

فماذا يريدون أكثر؟

كان من الواضح أن الاستدارة في مواقف الأحزاب التي دعمت الخامس والعشرين من يوليو لا تتعلق بالمحتوى وبأداء سعيد في تنفيذ جزء لافت من وعوده، ولكن بشخصية سعيد نفسه التي ترى أن دعم مسار الإجراءات الاستثنائية لا يعني أن يكون هذا الحزب أو ذلك جزءا من السلطة ويحصل على حصته في قيادة هذه الوزارة أو تلك، ويتمتع بمزايا دور الشريك ولو من وراء الستار، حيث كانت الوظائف العليا تقسم بين الأحزاب والنقابات على حسب درجة الولاء ودرجة الصمت.

ليس هناك شك في أن البعض كان يتوقع أن إسناد سعيد بقليل من التصريحات وإظهار "حماسه" للتغيير الذي جرى سيجعله يحظى بحظوة خاصة وأن الرئيس لن يجد أفضل منهم ليكونوا حزبه ومستشاريه والذين يفكرون له. كانوا يعتقدون أن الرئيس شخص غير مسنود ولا يمتلك شبكة علاقات وطارئ على المشهد السياسي، وأن إسناده في وقت الحاجة سيعطيهم الفرصة لإدارة الدولة باسمه وتحت مظلته ليمارسوا تمكينا شبيها بالتمكين الذي يقولون إن حركة النهضة قد خربت به المؤسسات واخترقتها ووظفتها لخدمة أجندتها.

لا شيء سيتغير سوى تبديل اليافطات بأن تذهب النهضة ويأتي هؤلاء معززين مكرمين تحت جناح شعبية الرئيس سعيد ونظافته ليتسلموا قيادة المؤسسات على طبق من فضة. لكن سعيد فاجأهم بصورة أخرى مغايرة صدمتهم وأحبطت خططهم حتى أنه بات يتصرف دون الالتفات إليهم أو طلب مشورتهم، ولا احتاج لنصائحهم وأفكارهم وخبراتهم وشبكة علاقاتهم التي هي في الأخير ليست أكثر من أمنيات تم تسويقها لخداعه وجره ليعود كما كانت تخطط له حركة النهضة مجرد واجهة لتنفيذ أجندات الأحزاب التي تعتقد أنها تمتلك الخبرة وأنها الفرقة الناجية، وهي أولى بالحكم من رجل ضعيف جاء من عامة الشعب ويريد أن يفعل ما بدا له.

الوقت الآن ليس وقت تغيير المواقف فتونس تحتاج إلى تحالفات ظرفية من أجل منع عودة المنظومة القديمة بشروطها وإعادة البلاد إلى الفوضى والفساد وغلبة المصالح الحزبية على الاهتمام بقضايا الناس

قادتهم الصدمة في اكتشاف رجل قوي إلى تغيير المواقف بسرعة. فموسي مثلا التي كانت تقول إنها من وفرت المناخ الملائم لسعيد من أجل حل البرلمان و"تفكيك منظومة الإخوان" باتت الآن تطلق خطابا قويا شبيها بخطاب حركة النهضة ضد سعيد.

وفي آخر حوار لها مع إذاعة موزاييك المحلية رفعت موسي من سقف خطابها ضد الرئيس سعيد بأن وصفته بأنه "رئيس السلطة القائمة"، وأنه يبحث عن "البيعة" من خلال الاستفتاء.

ولم تخف رئيسة الدستوري الحر في كلامها عقلية الاستعلاء الحزبي التي توهم أن الحزب يمتلك رؤية ومنهجا فيما يغيب ذلك عن الرئيس الفرد الذي لا خلفية حزبية له حين قالت إن "رئيس السلطة القائمة في حالة تناقض كبرى وقد نصحناه من خلال نقاطنا التنويرية طيلة شهرين وجهزنا له خارطة طريق لحفظ الأمن القومي".

السعي لإظهار التمايز عن مسار الرئيس وانتقاد أدائه والمزايدة في موضوع تفكيك منظومة الإخوان قد يكون حملة سابقة لأوانها تحسبا لانتخابات مبكرة خاصة أن حزبها يضع استطلاعات الرأي في المرتبة الأولى، ويمكن أن يصبح كتلة محورية خاصة في ظل الظروف الصعبة التي تعيشها حركة النهضة، وفي غياب تشكيل حزب داعم للرئيس، ونأي سعيد بنفسه عن التحالف مع أي من الأحزاب.

وإذا كانت موسي واضحة في القطيعة مع سعيد وتربط عودة الدعم بتنفيذ شروطها، فإن حركة الشعب ذات الخلفية الناصرية ما تزال في وضع المنزلة بين المنزلتين، فهي مع الرئيس، لكنها ترسل بإشارات ناقدة له على لسان بعض نوابها في البرلمان مثل أمينها العام زهير المغزاوي وهيكل المكي وسالم الأبيض.

مشكلة حركة الشعب غير مشكلة موسي، فهي لا تريد أن تتراجع عن دعم الرئيس الذي ربطت مصيرها بمصيره بأن دعمت إجراءاته وغالت في تبريرها وتقديم نفسها "حزب الرئيس" والناطق باسمه. ويمكن أن تقود القطيعة معه إلى أزمة عميقة داخلها، فضلا عن تأثيراتها السلبية على شعبيتها وحظوظها في انتخابات كانت تريد أن تدخلها تحت جبة الرئيس.

السؤال المهم الآن: إلى أين سيقود هذا المسار، وهل أن النأي بالنفس عن مسار سعيد سيخدم هؤلاء أم سيكون ورقة ضدهم في أذهان الناس؟ ذلك أن جزءا من خطابهم كان على نقد الأحزاب وانتهازيتها وتركيزها على أجنداتها الخاصة مقابل إغفال المعركة الحقيقية التي يريدها الشعب، معركة إنقاذ البلاد والبحث عن حلول للأزمات ومواجهة الفساد السياسي الواسع الذي ضرب البلاد ويهدد مستقبلها.

كان يمكن أن يأتي خطاب النقد الموجه لسعيد وأدائه وبهذه الحدة خلال الحملات الانتخابية، أما الآن، فهو يعني تقديم خدمة سياسية لحركة النهضة وخصومها من خلال ترك سعيد وحيدا في المواجهة.

إن الوقت الآن ليس وقت تغيير المواقف ولا الأجندات الشخصية والحزبية، فتونس تحتاج إلى تحالفات ظرفية من أجل منع عودة المنظومة القديمة بشروطها وإعادة البلاد إلى الفوضى والفساد وغلبة المصالح الحزبية على الاهتمام بقضايا الناس.

وإذا كان الرئيس لا تعنيه أبقي هذا الحزب في صفه أو غادر، فإن ذاكرة الناس ستذهب آليا إلى وسم ما يجري بأنه تحالف موضوعي مع النهضة، وسيقود هذا إلى تعميم الحكم على الأحزاب كلها بكونها انتهازية وباحثة عن مصالحها، وأن معركة مواجهة الفساد ليست معركتها.

ربما يكون سعيد وحيدا ولا يقدر بمفرده على حل كل المشكلات، لكنه في نظر الناس مستمر بتنفيذ وعوده في ما يتعلق بمصالحهم، وخاصة المعركة مع الاحتكار، وهو ما جدد التأكيد عليه الأربعاء في لقائه مع وزيرة التّجارة وتنمية الصادرات فضيلة الرابحي.

وقال قيس إن "العديد من السّلع اختفت من الأسواق فجأة، بينها مواد غذائية وبمجال البناء والصّحة، وهي موجودة في مخازن المجرمين الذين يختلقون الأزمات لإدارتها"، داعيا إلى "تطبيق القانون تطبيقا صارما مع هؤلاء (لم يحددهم)، وهناك من القوانين ما يسمح بتسعير المواد، ولا مجال لترك المواد الأساسية موضوعا للمضاربة والاحتكار".

انتخابات العراق، فرصة لاستدراك الخطأ

علي الصراف
كاتب عراقي

كل القوى والأحزاب الوطنية العراقية التي قررت مقاطعة الانتخابات فعلت ذلك تحت وطأة اعتقاد يقول إن الانتخابات ستكون مزورة كسابقاتها، وإن هيمنة المال السياسي والسلاح سوف تتحكم بالنتائج.

في ظروف ما قبل العاشر من أكتوبر الماضي كانت هذه هي الصورة. ولو كنتُ واحدا ممن يمكنهم اتخاذ قرار، لقررتُ المقاطعة أيضا، إذ مَنْ يمكنه الثقة بعمل أي شيء مع أشخاص يبيحون لأنفسهم السرقة والقتل ثم يدعون أنهم يؤمنون بالعباس والحسين؟

ولكن النتائج الفعلية أظهرت أن هذا التقدير كان خطأ. الشعب العراقي الذي قاطع الانتخابات كان هو نفسه على خطأ أيضا. والملايين التي خرجت للاحتجاجات على مدار عام ونيف للمطالبة بتغيير النظام ثم قاطعت الانتخابات على سبيل اليأس كانت أيضا على خطأ. إذ لا المال السياسي ولا سلاح الميليشيات ولا كل خبرات التزوير السابقة شفعت لجماعات الإطار التنسيقي بأن تحقق الفوز الذي كانت تنشده.

باختصار، أظهرت النتائج أن الانتخابات كانت أكثر نزاهة من سابقاتها، وأن السلاح والمال السياسي لم يتركا فيها أثرا كبيرا، وأن "الفلوس التي صرفها الميليشياويون راحت بلاش".

ولكن، رُبّ ضارة نافعة. فحيث أن جماعات المال السياسي والميليشيات الموالية لإيران تطالب بإعادة الانتخابات لأنها "مزورة"، فقد يكون من الأنسب لكل الذين قاطعوا الانتخابات أن يستدركوا الخطأ، وأن يشدوا على أيدي عصابات الولي الفقيه لتشجيعها على طلب إعادة الانتخابات بالفعل.

تخيّل ماذا يمكن أن يحصل؟

عشرون مليون مناهض لسلطة عصابات الولي الفقيه ممن غلبهم اليأس يمكنهم أن يقلبوا عاليها سافلها بالفعل إذا عادوا ليدخلوا حلبة الانتخابات.

تلك العصابات لن تحصل مجددا على أكثر مما حصلت عليه، أو أقل بالأحرى. فهؤلاء مثل العنزة التي أراد أهلها ذبحها، فلما لم يجدوا سكينا حفرت هي الأرض، لتظهر السكين فذبحوها بها، حتى ذهبت بما فعلت مثلا "كالباحث عن حتفه بظلفه".

هذه العصابات تمارس لعبة تورية الآن، وذلك بقصد الضغط على مقتدى الصدر لكي تشاركه الكعكة. وهي لا تجهل احتقار العراقيين لها ولولاءاتها. كما أنها لا تجهل حقيقة أنها منظمات فساد وجريمة وأعمال نهب. وبالتالي فإنها ليست موهومة بنفسها إلى ذلك الحد الذي يجعلها تعتقد بالفعل أنها تستطيع الفوز.

كل الملايين التي كانت تخرج في تظاهرات احتجاجا على هيمنة منظمات الجريمة يمكن أن تعود إلى ساحات الاحتجاج للمطالبة بإعادة الانتخابات تأييدا لمطالب منظمات الجريمة! بعض الخبث، مع من يمثل الخبث طبيعتهم الوحيدة، قد ينفع.

وأكاد أشعر أن تلك المنظمات من الجبن بحيث لو حصل ذلك فإنهم سوف يتراجعون عن الدعوة، ويضع كل واحد منهم ذيل دشداشته في فمه ويهرب، حتى لكأن واحدهم لم يقدم طلبا رسميا "بالإثباتات والأدلة" إلى المحكمة الاتحادية داعيا إلى إلغاء الانتخابات.

وحيث أن الصدر يريد تشكيل حكومة "أغلبية وطنية"، فإن من الحصافة السياسية مساندته وتقديم الوعد له، بأن هذا هو ما سوف يكون إذا أعيدت الانتخابات، وذلك لتعميق الشرخ بينه وبين أقرانه السابقين.

لا شيء يمنع من "تأصيل" التوجه الذي صار يتخذه الصدر، حتى ولو كان مجرد ثمرة بضعة أسابيع من الألمعية الاستقلالية التي تريد أن تنأى بالعراق عن إيران. هذا النبت الطارئ يمكن أن يتعزز. بل من الخير أن يتعزز، وأن يُمنح الصدر الفرصة لكي يَثبت عليه، بدلا من العودة إلى الارتماء في أحضان جماعات الولي الفقيه لكي يتقاسم معهم الكعكة.

العقلية "الثورية" التي تريد "كل شيء أو لا شيء" جديرة بأن يتم نبذها. هي عقلية مفيدة إذا كان المرء يمتلك القوة لكي يفرضها، ولكنها سرعان ما تكون شعارا أجوف من دون تلك القوة.

الافتراضات التي قوطعت الانتخابات على أساسها ثبت أنها خطأ. وقبول الدعوة لإعادة الانتخابات سيكون بمثابة فرصة لاستدراك ذلك الخطأ.

يستطيع المرء أن يتفهم الشكوك بمقتدى الصدر. إنها جديرة بالاعتبار فعلا. ولكن الذين صبروا ثمانية عشر عاما على جرائم مكتملة الأركان يمكنهم أن يصبروا على نصفها.

ولو أن قيادة الصدر للحكومة المقبلة أحيطت بما يكفي لتثبيت أقدام الرجل على أرض ما يقول، فإن ذلك يمكن أن يوفر مخرجا، ولو تدريجيا، من المحنة.

الرجل شغوف بالزعامة. ويريد أن يخلع عليها طابعا وطنيا. وهذا مظهر جدير بالاستفادة منه. ولعله يفعل ذلك من باب المناكفة مع نوري المالكي، إلا أن أحدا لا يستطيع نكران وجود شروخ بين جماعات الإسلام السياسي الشيعي. بيوتات هذا الإسلام "الذي يؤمن بالعباس والحسين" تتنازع في ما بينها من سالف الأيام، ويريد كل منها أن يستولي على "الخُمس". وكلهم "سادة"، ولله الحمد الذي لا يُحمد على مكروه سواه. وعمائمهم سود، أعوذ برب الفلق.

المتظاهرون الذين كانوا يملأون ساحات بغداد سمحوا بأن يتشارك الصدريون معهم، بينما نصب الصدر خيمة احتجاج خاصة به، لكي يوحي بأنه هو الذي يقود الانتفاضة. لا تعرف كيف. ولكن ذلك كان هو المقصد.

والكل رأى أنه عندما تم لفظ ميليشياته من حشود المتظاهرين، أخرجت هذه الميليشيات السكاكين والهراوات ضدهم.

هذه وقائع لا تُنسى. ولكن تقف خلفها دلالة وحيدة، هي أن الرجل يريد أن يصبح زعيما. ولو أن انتخابات يعود ليشارك فيها المقاطعون أسفرت عن توازنات جديدة، فإن منح الصدر الزعامة يمكن أن يوفر مخرجا، إذا ما تم تحصينها بشروط مكافحة الفساد والاستقلال الوطني وإقامة دولة قانون.

"نص مصيبة" خير من مصيبة كاملة.

الذين يقولون إن "السياسة هي فن الممكن" إنما كانوا يقصدون البحث عن نصف الممكن لعلهم يتمكنون من استكماله.

مقاطعة الانتخابات قالت إن التغيير غير ممكن. ولكن الانقسام الراهن بين الذين اقتسموا الكعكة على مدى السنوات الماضية أظهر أن نصف الممكن ممكن.